التاريخ الكلي للعالم بين النظريتين
الدورية والغائية

إعـــداد

د/ فتحي محمد نبيـــه شعبان

قسم الفلسفة - كلية الآداب بقنـــا

جامعة جنوب الوادي

١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م

التاريخ الكلى للعالم بين النظريتين الدورية والغائية

مُقَدِّمَة :

إذا كانت بعض النظريات المعاصرة ترى أن التاريخ ينهج نهجاً دورياً فإن بعض النظريات الأخرى المناهضة ترى منذ البداية أن التاريخ يتجه صوب غاية محددة . إن أنصار الاتجاه الأول يسعون إلى إقامة التاريخ علماً على غرار العلوم الطبيعية . فهم يقومون بعملية حشد للوقائع التاريخية والبحث عن قوانين عامة ينتظم بمقتضاها تاريخ العالم ، ومن ثم فالتاريخ يخضع لمنهج واضح المعالم، إن هذه النظرية الدورية قديمة جداً ترجع إلى الفكر اليونانى القديم ، وأشهر روادها فى الفكر المعاصر أزوالد شبنجلر وأرنولد توينبى .

أما أنصار الاتجاه الثانى فيقررون أن التاريخ محدد بنهاية لايتجاوزها ، إنها عند هيجل تحقيق الحرية والمساواة بصورة كاملة فى العالم الجرمانى بفضل الثورة الفرنسية عنده . وقد وصل التاريخ عند ماركس إلى منتهاه فى المجتمع الشيوعى اللاطبقى وهو غاية التاريخ . وأخيراً تتمثل غاية التاريخ ونهايته عند فرنسيس فوكوياما فى الثورة الأمريكية .

وفى إطار هاتين النظريتين المتصارعتين فقد اخترت البحث فى نظرية أرنولد توينبى المؤرخ الإنجليزى ونظرية الفيلسوف الأمريكى فرنسيس فوكوياما . فتوينبى اعتنق نظرية فى التاريخ تقول بأن الحضارات المتعاقبة فى التاريخ تخضع لعملية ميلاد وفناء شأنها فى ذلك شأن الكائنات الحية . وهذه العملية لا تتعارض عنده مع الميعاد المسيحى بل إنها تخدمه . أما فوكوياما فإنه ينظر إلى التاريخ على أنه ينتهى فى الحاضر . وكل الحركات وكل المعارك والحروب والثورات التى بدأت منذ فجر التاريخ كانت تتجه كلها نحو الحاضر . فالتاريخ غائى، ولا وجود لأحداث متكررة فيه . وإذا كان توينبى قد اتخذ روما نموذجاً للتطور فإن

فوكوياما قد اتخذ الثورة الأمريكية نهاية للتاريخ البشرى .

وتهدف هذه الدراسة إلى المقارنة بين النظرية الحيوية الدورية فى التاريخ عند توينبى وبين النظرية الغائية عند فوكوياما وبيان كيف كان الهدف من مخطط توينبى فى التاريخ هو الربط بين التعاقب الدورى للحضارات والميعاد المسيحى . وبيان كيف كان الهدف من مخطط فوكوياما فى التاريخ هو الوصول إلى الدولة العامة المتجانسة التى تستوعب فى داخلها الرأسمالية الحرة والديموقراطية الليبرالية . ولتحقيق الهدف من هذا البحث فقد استخدمت المنهج التاريخى التحليلى والمقارنة .

والله أسأل أن أكون قد وفقت فى علاج هذا الموضوع . فإن كنت قد أصبت فهذا فضل من الله سبحانه وتعالى وإن كنت قد أخطأت فمن نفسى "ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها".

دكتور / فتحى محمد نبيه شعبان

التاريخ الكلى للعالم والنظرية الدورية

"توينبى"

تتسم نظرية أرنولد توينبى (*) فى التاريخ بالدورية ، والحتمية ،

---

* ولد أرنولد توينبى فى لندن عام ١٨٨٩ ، ودرس فى ونشيستر بكلية باليول فى جامعة اكسفورد حيث تلقى "تعليما ذات طراز عتيق فى الكلاسيكيات اليونانية واللاتينية" أثناء العام الذى قضاه كطالب فى مدرسة الآثار البريطانية فى أثينا فإنه "استخف بمشاعر اليونان وأصبح على وعى بتيار الشئون الدولية من خلال ما يتردد من أحاديث فى المقاهى عن السياسة الأجنبية للسير إدوار جرى وفى عام ١٩١٢ عاد إلى باليول كزميل ومدرس ، فدرس التاريخ القديم حتى عام ١٩١٥ ، وحينما التحق بخدمة الحكومة ، عمل بالشئون التركية فى قسم الاستخبارات السياسية للقسم الأجنبى وأخيرا فى مؤتمر باريس للسلام . ومن عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٢٤ كان أستاذا للدراسات اليونانية الحديثة والبيزنطية فى الملكية بجامعة لندن ، وقضى عاما فى ذلك الوقت متنقلا فى اليونان كمراسل حرب لصحيفة الجارديان بمنشيستر . ومنذ عام ١٩٢٥ عمل كمدير للدراسات فى الجمعية الملكية للشئون الدولية . ومن عام ١٩٣٩ إلى عام ١٩٤٦ كرس كل وقته لخدمة الحكومة بوصفه مديرا لقسم البحث فى الإدارة الأجنبية .

وفى أثناء ربيع عام ١٩٤٧ ذهب توينبى إلى الولايات المتحدة لإلقاء محاضرات مارى فلكسنر الثانوية فى كلية برن ماور . وبينما كان يحاضر فى هذا البلد باستفاضة فإن نشر مختصر دراسة التاريخ كان موقوتا فى أن يحتل مكانة أثناء إقامته . وعاد ثانية إلى هذا البلد فى فبراير عام ١٩٤٨ ، بدعوة من الجمعية من أجل تقديم دراسة فى برنستيون ، لكى يعد المجلدات الثلاث النهائية من المجلدات التسع الضخمة من دراسة التاريخ . وكان مؤلفا لعدد من الكتب مع زوجته، فيرونكا . م . بلتر . وكان أيضا محررا لسلسلة استعراض الشئون الدولية المتواصلة.

وقد نشرت المجلدات الست من عمله الرئيسى دراسة التاريخ ، فى عام ١٩٣٤ ــ ١٩٣٩ فى مكتبة جامعة إكسفورد. وقد أعد سمرفيل موجزها فى مجلد واحد ونشر فى عام ١٩٤٧ . وسلسلة مقالات توينبى الخاصة بعمله الرئيسى نشرت فى عام ١٩٤٨ تحت عنوان "الحضارة فى الميزان" وكما أشار إلى ثلاث مجلدات إضافية من دراسة التاريخ لا تزال متاحة .

وأفكار دراسة التاريخ أصبحت منتشرة على نطاق واسع بعد نشر مجلد سمرفيل الموجز ، الذى أصبح كتابا رائجا فى الولايات المتحدة . وقد ظهر الأدب الوافر عن عمله الرئيسى وحوله .

"Sorokin Pitirim A . Modern Historical and social philosophies – New york 1963 pp : 113 – 114" .

وتتمثل الحتمية عنده فى الشروط الصارمة التى وضعها للحضارات الأساسية فى التاريخ عنده مستهدفا بذلك غرضاً أسمى وهو الدين . ولهذا فقد تركز البحث فى نظرية توينبى فى التاريخ على النقاط الآتية : التشكل التاريخى ــ آلية ميلاد الحضارات وزوالها ــ الدين والحضارة .

التشكل التاريخي

والنقطة التى نود الإشارة إليها هنا قبل أن نتطرق إلى البحث فى علم التشكل التاريخي هى وجود اختلاف جوهرى بين التشكل التاريخي أو النظرية الدورية وبين الغائية فى التاريخ . وفيما يختص بالنقطة الأولى فإن أنصار هذا الاتجاه يسعون إلى حشد الوقائع التاريخية والبحث عن القوانين العامة التى تحكم حركة التاريخ الكلى للعالم ، والتاريخ عندهم يخضع لمنهج شأنه فى ذلك شأن العلوم الطبيعية التى أحرزت تقدما بفضل استخدامها للمنهج العلمى وفى حالة أرنولد توينبى فإنه أقر أن الحضارات التى وجدها فى مجرى تاريخ العالم تخضع لقوانين ثابتة تحكم نموها وتحللها . وهذه العملية تسرى على جميع الحضارات التى بحثها ، والهدف من وراء هذه العملية هو الربط بين نظريته الدورية والميعاد المسيحى . أما الغائية فى التاريخ فتقر أن للتاريخ نهاية لا يتجاوزها ، هى عند هيجل قد تحققت فى العالم الجرمانى حيث غمرت الحرية والمساواة جميع الناس ، وهى عند ماركس قد تحققت فى ظل الشيوعية أو المجتمع اللاطبقى ، وهى عند فرنسيس فوكوياما قد تحققت فى الولايات المتحدة فى ظل الرأسمالية الحرة والديمقراطية الليبرالية .

وبالعودة إلى علم التشكل فإننا نجد أن مؤلفى علم التشكل التاريخى ،

من أمثال شبنجلر وتوينبى يبحثون فى التاريخ عن القوانين العامة التى تتكرر لدورات دائمة التردد ، والتى لا تؤدى معرفتها إلى فهم الماضى فحسب ، وإنما إلى التنبؤ بالمستقبل . [1] وبمناسبة الكلام عن التنبؤ ذكر توينبى أنه فى سنة ٣٠٤٧ م ربما يحدث تغير للحضارة الغربية بفعل إشعاع المؤثرات المضادة الصادرة من العوالم الأجنبية مؤثرات من العالم المسيحى الأرثوذكسى ، ومن الإسلام ومن الهندوس ومن الشرق الأقصى . وقبل نهاية سنة ٤٠٤٧ م قد توجد تجربة فريدة من نوعها تتمثل فى تحطيم التراث الاجتماعى الإقليمى لإحدى الحضارات لاصطدامه بالتراث الإقليمى للحضارات الأخرى ، ثم إيجاد حياة جديدة ــ حياة مشتركة ــ تقوم على أنقاض هذا الحطام . وفى سنة ٥٠٤٧ فإن أهمية هذا التوحيد الاجتماعى للعالم ربما تتمثل فى ميدان الدين فحسب . [2] إنه إذن متفائل ويحدوه الأمل فى حياة جديدة مشتركة . ربما تكون الآن فى الاتحاد الأوربى أول بوادر هذه الحياة المشتركة ، وكذلك الأصوات التى ارتفعت مطالبة بالحوار بين الغرب والعالم الإسلامى ، وعلى جانب آخر نجد أن هذه البوادر تتحطم نتيجة للحروب والصراعات بين مختلف الشعوب والحضارات .

فالشغل الشاغل لهؤلاء المؤلفين هو البحث عن قوانين عامة تحكم حركة التاريخ وتختلف هذه النظرة بكل تأكيد عن الغائية التى تؤكد أن التاريخ يتجه صوب غاية محددة . وعند فوكوياما أحد هؤلاء القائلين بالغائية أن التاريخ لا يعيد نفسه وإنما هو فى تجدد مستمر وقد كان تمام غايته الحقيقية فى الثورة الأمريكية فمؤلفو علم التشكيل التاريخى على

---

[1] ــ روبرت لافون ــ جرامون ــ قضايا الساعة ــ ترجمة نادية القبانى ــ شركة ترادكسيم ١٩٧٧ صـ ٦٧ ــ ٦٨

[2] ــ أرنولد توينبى ــ الحضارة فى الميزان ــ ترجمة أمين محمود الشريف ــ الإدارة العامة للثقافة . ص ١٩٠ ــ ١٩١

العكس من ذلك تماماً يسعون جاهدين إلى إقامة التاريخ علماً على غرار العلوم الطبيعية . فمن الظواهر التى تحوز رغبتنا هى الاعتقاد بأنه فى مقدورنا اكتشاف أنماط واسعة أو تكوينات منتظمة فى مجرى التاريخ وبالذات عندما نكون من هؤلاء الذين اندهشوا بالتقدم والنجاح الذى أحرزته العلوم الطبيعية أو ما اخترعته من تصنيفات للواقع، وإيجاد صلات بين هذه الأحداث ، والشئ الأهم من ذلك القدرة على التنبؤ . [١] لقد انعكس أثر ما أحرزته العلوم الطبيعية من تقدم منذ القرن السابع عشر على العلوم الإنسانية ، ومن بينها التاريخ ، ولما كان من أسباب هذا التقدم انتهاج العلوم الطبيعية (المنهج التجريبى) فقد تساءل علماء الإنسانيات عن مدى إمكان تطبيق منهج العلوم الطبيعية على علوم الإنسان لتحرز هذه بدورها تقدماً مماثلاً . [٢] تلك هى النهضة العلمية التى غمرت التاريخ وبها ومن خلالها استطاع أن يقدم لنا مجموعة من النظريات التى تهدف إلى فهم أحداث الماضى والتنبؤ بالمستقبل.

فإذا كان علم التشكل التاريخى يهدف إلى البحث عن قوانين عامة فى التاريخ يمكن عن طريقها التنبؤ بما سيحدث فى المستقبل ، فإن النتيجة هى حتمية صارمة فى التاريخ ، ومن ثم فلا معنى للجهد البشرى . إن هذا الموقف الذى تبناه توينبى وغيره أعنى إخضاع التاريخ لقوانين عامة إنما يعبر بكل تأكيد عن الحتمية . فالعوامل المناخية والجغرافية على سبيل المثال كما يقرر توينبى تؤثر على شخصية الأفراد وأنشطتهم . [٣] هنا وفى

---

[1]- Berlin Isaiah four essays liberty , oxford university press , London , 1969 – P : 43 .

[٢] ــ دكتور أحمد محمود صبحى ــ فى فلسفة التاريخ ــ مؤسسة الثقافة الجامعية . صـ ١١ ــ ١٢ .

[3]- Porter Burton F. the Good Life – Macmillan London – 1980 p : 56 .

بيرتون بورتر ــ الحياة الكريمة ــ الجزء الأول ــ ترجمة دكتور أحمد حمدى محمود ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣ صـ ٧٧

هذه النظرة ليس للإنسان دور يقوم به . فبدلاً من أن يشكل التاريخ ويتحكم فيه نجد أن الإنسان يخضع لظروف قهرية تتحكم فيه وفى تاريخه وتسيره إلى الدورة التالية .

آلية نمو الحضارات وانحلالها

إن الميدان الأصلى للدراسة التاريخية عند أرنولد توينبى ليس وصفاً للأحداث الفردية التى تقع فى المكان أو الزمان وليس تاريخاً للدول والكيانات السياسية أو تاريخ الإنسانية بوصفها "وحدة": "فالميادين المعقولة فى الدراسة التاريخية" . . . هى المجتمعات التى لها امتداد فى المكان والزمان ، أكثر من الدول القومية أو مدينة الدول، أو أى تجمعات سياسية ... فالمجتمعات ، وليست الدول،هى "الذرات الاجتماعية" التى لابد أن يعالجها دارسو التاريخ . [١] والنتيجة هى أن توينبى أقام نظريته فى التاريخ على أساس المجتمعات البشرية ، فإحدى وعشرون حضارة قام بتحقيقها تحت ظروف مماثلة وفى ظل شروط معينة كشفت له عن وجود قانون محدد يتحكم فى تكوينها وزوالها .

إن هذه المجتمعات أو الحضارات التى تؤلف عنده التاريخ الكلى للعالم تكفى عنده تماماً لاستخلاص قانون عام . ويذكر بالإضافة إلى الإحدى وعشرين حضارة أنه يوجد عدد من المجتمعات البدائية يفوق الستمائة والخمسين ، فيقول "ها هنا الستمائة والخمسون مثالاً وإن كانت أقل من أن تتطلب استخدام الخيال إلا أنها تكاد تكفى تماماً لتكون بداية تسمح للدارس باستخلاص القوانين" [٢] ومن هنا فالتاريخ الكلى للعالم كما يتصوره توينبى

---

[1]- Sorokin Modern Historical and Social Philosophies P:114 .

2- Toynbee Arnold J. – Astudy of History – By Somervell D.C. oxford university press – 1962 P:47 .

ـ أرنولد توينبى ـ مختصر دراسة التاريخ ـ ترجمة فؤاد محمد شبل ـ الجزء الأول جامعة الدول العربية صـ٧٧

يخضع لقوانين محددة يمكن عن طريقها التنبؤ بالمستقبل. يقول برلين "إن ما يهدف إليه المؤرخون هو سد الثغرات فى معرفة الماضى ، بل والمستقبل أيضاً ، استناداً على معرفة يقينية ببعض الأحداث التاريخية وفقا لمبدأ مؤداه استخلاص المجهول من المعلوم. [١] وموقف برلين هذا ينطبق على نظرية توينبى فى التاريخ ، فهو لا يسعى إلى فهم أحداث الماضى فحسب وإنما يسعى إلى التنبؤ بالمستقبل وباختصار إنه يحاول أن ينتقل من المعلوم إلى المجهول .

ولنحاول الآن إلقاء مزيد من الضوء على مسألة تكوين الحضارات عند توينبى فتكوين الحضارة عنده لا يرتد هكذا إلى عامل الجنس أو البيئة الجغرافية وإنما إلى شرطين أساسيين متحدين : وجود أقلية مبدعة فى مجتمع واعد وفى بيئة غير سلبية أيضا أو إيجابية كذلك ، فالجماعات التى تتوفر لها هذه الشروط تظهر بوصفها حضارات ، والجماعات التى لا تتوفر لها هذه الشروط عندئذ تظل فى مستوى دون الحضارة . وآلية ميلاد الحضارة فى هذه الشروط تتكون بوصفها تفاعلاً من التحدى والاستجابات . وتمثل البيئة فى الشكل السابق تحدياً دائماً للمجتمع ، والمجتمع من خلال أقليته المبدعة ، يستجيب بنجاح للتحدى ، ويفى بالحاجة ويلى التحدى الجديد والاستجابة الجديدة نتائج ناجحة تتولد عنها حاجات جديدة وتحديات جديدة وهكذا تستمر العملية دائماً . وفى هذه الأحوال فإنه لا توجد إمكانية خامدة للأبد ، والمجتمع يكون فى انتقال كل الوقت، فمثل هذه الحركة تنقله ، إن آجلاً أو عاجلاً إلى مرحلة الحضارة . وبالبحث فى الحالات التى ولدت فيها حضاراته الإحدى وعشرين فإنه وجد أنها ظهرت تماماً فى الظروف السابقة. [٢] يقول توينبى "إن الحضارات

---

[1]- – Berlin Isaiah, four Essays on liberty P : 43 .

[2]- Sorokin – Modern Historical and social Philosophies p:115 .

تبرز إلى الوجود وتسير فى طريق النمو إذا استطاعت ان تستجيب بنجاح إلى ضروب التحدى المتوالى الذى يواجهها ، وهى تنهار وتذهب ريحها إذا فشلت فى مواجهة هذا التحدى". [١] إن هذه العملية التى وصفها لنا توينبى لا تدع مكاناً للعامل الإنسانى ، فالحضارة تولد بفضل شروط محددة ، وهذه العناصر اللاشخصية هى التى تتحكم فى قيام وانهيار الحضارات . .

بالطبع تنطوى نظرية توينبى فى التاريخ على بواعث دينية فكيف حدث هذا ؟ ثمة أحد التفسيرات يحوز رغبتنا قد جاء به علماء اللاهوت لتفسير الشر الطبيعى ومجاهدة الإنسان فى العالم الخاضع لإله خير . على حقائق هذه السيكولوجية . يعنى ينزع علماء اللاهوت أحياناً إلى المحاجة بالقول بأن ارتقاء الإنسان يتوقف على ما يصطدم به من عقبات ، فلو كان العالم فردوساً وجنة فيحاء ما تعرض الإنسان للتحدى ولما صادفت شخوصه المنبهات التى تحفزه طيلة حياته فالله يزود العالم بقدر كاف من الدوافع التى تتمثل فى شكل أوبئة وأمراض وتفجرات بركانية وفيضانات وزلازل ونمور وعقارب وصحارى وأدغال وغيرها حتى يتسنى للجنس البشرى إحداث تقدم فى الطب والهندسة والعلم وجميع سبل التحكم فى البيئة . وفضلاً عن ذلك فإن الأفراد يستحثون على زيادة قوة تحملهم حتى تتسنى لهم محاربة هذه الشرور.[٢] هذا النقد وهو على جانب عظيم من الوجاهة يؤكد على وجود صلة بين نظرية التحدى والنظرة اللاهوتية للشر فى العالم ، فالعقبات والموانع وكافة المعوقات التى وضعها الله فى العالم هى عبارة عن تحديات دائمة تواجه الجنس البشرى . وتغلبهم وانتصارهم

---

[١] ــ أرنولد توينبى ــ الحضارة فى الميزان ــ ترجمة أمين محمود الشريف ــ الإدارة العامة للثقافة صـ ٦٢

[2]- Porter – The good life – Notes p:66

انظر الترجمة العربية صـ٧٨

عليها يؤدى إلى التقدم والرقى فى شتى مجالات الحياة .

واضح من دراسة توينبى للحضارات أنه ينطلق من مقدمات لاهوتية فحينما يسعى إلى الكشف عن القوانين التى تتحكم فى مجرى التاريخ الكلى للعالم فإنه يريد إثبات أن هذه القوانين ستوصلنا فى النهاية إلى الميعاد المسيحى . ومن ثم لا يوجد عنده تعارض بين التعاقب الدورى للحضارات والطريق التصاعدى للدين . وتوينبى كمسيحى فإنه لا يألو جهداً فى بيان أن المسيحية لا تزال أعظم حادثة جديدة فى تاريخ البشر ، بينما انفجار الديموقراطية والعلم ــ بامتدادهما آخر حادثتين جديدتين فى حضارة الغرب الدنيوية "تكرار لشئ لا معنى له تقريباً سبقنا إليه اليونان والرومان وعلى نحو أفضل وأرفع ." [1] والواقع أن توينبى بوصفه مسيحى فإنه كان لابد وأن يعتبر أن المسيحية حادثة جديدة وعظيمة من نوعها فى تاريخ البشر . وأنه اعتبر أن الديموقراطية والعلم وهما السمة الأساسية والمميزة لحضارة الغرب الزمنية حادثتان لا معنى لهما . وبالبحث فى هذه النقطة بالذات يتبين لنا نزعة توينبى العنصرية ، وبالنظر إلى هيجل نجد أنه اعتبر أن الحرية الحقة لم تتحقق إلا فى العالم الجرمانى . واعتبر توينبى أن الحرية بمعناها الصحيح لم يعرفها على نحو أفضل سوى العالم اليونانى والرومانى . بينما فرنسيس فوكوياما يقرر بما لا يدع مجالاً للشك عنده أن الديموقراطية الليبرالية والرأسمالية الحرة قد تحققتا فى الثورة الأمريكية . واضح أنه توجد نغمة عنصرية تهيمن على هؤلاء المفكرين دون النظر إلى بحث القضية بكامل الموضوعية والحياد التام .

ولننظر الآن فى طبيعة نمو الحضارة عند توينبى بشئ من

[1]- Lowith Karl – Meaning in History – Chicago, press – 1949 P :14

التفصيل فنمو الحضارة فى رأيه لا يرجع إلى الامتداد الجغرافى للمجتمع ولا يرتد إليه . وبغض النظر عن أى شئ فإن الامتداد الجغرافى للمجتمع يرتبط بكل تأكيد بانهيار وانحلال الحضارة وليس بنموها . وعلى حد سواء فنمو الحضارة لا يتألف من العملية التكنولوجية ولا يرجع إلى زيادة السيطرة الاجتماعية على البيئة الطبيعية : "فليس ثمة علاقة متبادلة بين التقدم فى التقنية والتقدم فى الحضارة" . ونمو الحضارة يتألف من "حرية الإرادة الباطنية التقدمية والتراكمية أو التعبير الذاتى للحضارة ، وينظر إلى وجهة النظر فى كل "تحول" من خلال علاقات اجتماعية وداخل علاقات فردية ، "والنمو انسحاب أو ارتداد" خلاق مستمر للأقلية الساحرة فى المجتمع وفى العملية الجديدة الناجحة دائما ، استجابات لتحديات جديدة للبيئة. فنمو الحضارة عبارة عن وحدة فمجتمعها يتألف من أقلية مبدعة تقلد بحرية وتتبعها الأغلبية ـــــــ البروليتاريا الداخلية للمجتمع والبروليتاريا الخارجية لجيرانه الهمجيين . فى مثل هذا المجتمع لا يوجد صراع دام ولا يوجد انشقاق صارم . إنه كيان متماسك . ونمو الحضارة يتجلى فى إمكانيته السائدة ، التى تختلف باختلاف الحضارات،الجمالية فى الحضارة الهلينية ، الدين فى الهندية ، والميكانيكية العلمية فى الغرب ، وهكذا وكنتيجة فإن عملية النمو تعرض تكاملاً تدريجياً وحرية إرادة لنمو الحضارة والاختلاف بين مختلف الحضارات فى النمو ، هذا هو حل مشكلة نمو الحضارة . [1] فنمو الحضارة إذن يتألف من حرية الإرادة الباطنية التقدمية والتراكمية او التعبير الذاتى للحضارة . ولا يرتد إلى الاتساع الجغرافى للمجتمع . وإنه أيضاً لا يرتد إلى العملية التكنولوجية ولا يرجع كذلك إلى زيادة المجتمع تحكما فى البيئة الفيزيائية .

---

[1]- Sorokin – Modern Historical and social philosophies pp:115 – 116

توضح عملية توينبى هذه أنه لا غائية فى التاريخ ، وكل ما يحدث فى التاريخ ليس إلا تكراراً ، فإحدى وعشرين حضارة قام توينبى ببحثها هى عبارة عن نماذج متكررة بصور مختلفة ، وها هنا تختلف نظرة توينبى عن نظرة هيجل للتاريخ ، فالتكرار المستمر عند هيجل هو خاصية طبيعية ، فالطبيعة وحدها هى التى تكرر نفسها باستمرار ولا تأتى بجديد . والتاريخ عنده هو وحده الذى يأتى بجديد حتى يحقق هدفه النهائى . [1] ويسير فرنسيس فوكوياما على هذا النهج نفسه والتاريخ عنده كما هو عند هيجل ينتهى إلى غاية ، هى عند هيجل شيخوخة التاريخ وعند فرنسيس فوكوياما نهاية التاريخ أى تمامه وقد تحققت عنده فى الثورة الأمريكية .

وفى صيغة توينبى ، "طبيعة انهيار الحضارات يمكن أن نوجزها فى ثلاث نقاط : فشل قوة الإبداع عند الأقلية ، وارتداد المحاكاة إلى جانب الأغلبية ، ومن ثم فقدان الوحدة الاجتماعية فى المجتمع برمته" ففى الصورة الممتدة تسير هذه الصيغة كما يلى : إن الزمن فى تاريخ أى مجتمع يشهد بأن الأقلية المبدعة تنحدر إلى مجرد أقلية سائدة تحاول أن تحافظ بالقوة على الموقف الذى توقف عن العطاء ، وهذا التغير الحاسم فى خاصية العنصر المسيطر يؤدى من جهة أخرى إلى انسحاب البروليتاريا [الأغلبية] التى لم تعد تعجب تلقائياً أو تقلد بحرية العنصر المسيطر . وهذه البروليتاريا حيثما تؤكد ذاتها ، تنقسم منذ البداية إلى جزئين متباينين . فثمة "بروليتاريا داخلية" [أغلبية الأعضاء] و ... "بروليتاريا خارجية" بربرية وراء اللعبة التى تجسد المقاومة بكل قوة . إن هذا الشكل المنحرف يتألف من ثلاث أوجه وهى: [أ] انهيار الحضارات ، [ب] انحلالها ، و [ج] زوالها . وغالبا ما تفصل قرون بين مرحلة الانهيار والزوال ، تبلغ فيما

---

[1]- Hegel – the philosophy of History – translated by J. sibree – New York 1956 P : 54 .

بينها آلاف السنين . [1] والمهم هنا أن الحضارات فى مرحلة نموها تتسم بالوحدة والتماسك العضوى للمجتمع ، فالمجتمع فى مرحلة النمو يكون عبارة عن جسد واحد لا انشقاق فيه . اما فى مرحلة الانحلال فإن المجتمع يفقد تماسكه ويصبح منقسما على ذاته . وهذه العملية التى رسمها توينبى لا تعبر إلا عن عملية حيوية تمر بها جميع الحضارات وكأن هذا هو المصير المحتوم لكل حضارة تظهر على الأرض .

تكشف الحضارات فى طور انحلالها عن وجود دول عالمية وكنائس عالمية ، فالأقليات المبدعة كما يقرر توينبى تفشل فى مرحلة الانحلال فى أن تقدم سلسلة من الاستجابات الناجحة لتحديات جديدة دائمة . وبدلا من ان يسكرها النصر فإنها تأخذ فى "الارتكان على قذائفها ،" فى "عبادة" القيم المترابطة بوصفها مطلقة ، وتفقد جاذبيتها الساحرة ولا تقلدها ولا تتبعها الأغلبية . ومن ثم يتعين عليها استخدام القوة المتزايدة للسيطرة على البروليتاريا العالمية والخارجية . وفى هذه العملية تخلق الدولة العالمية ، مثال ذلك ان الأقلية الهلينية السائدة قد خلقت الامبراطورية الرومانية ، بوصفها وسائل للمحافظة على ذاتها ، ويقرر توينبى من جهة أخرى أن البروليتاريا الداخلية تنشق عن الأقلية الآن ، وتصبح مستاءة وغير راضية ، وغالبا ما تخلق كنيسة كلية ـــ مثال ذلك ، المسيحية أو البوذية ـــ بوصفها مذهبها وتكوينها الخاص . فى حين أن الدولة الكلية للأقلية المسيطرة تكون عبارة عن هلاك ، والكنيسة الكلية للبروليتاريا الباطنية [على سبيل المثال ، المسيحية] تصلح كجسر وأساس لـ "تبنى" حضارة جديدة [عن طريق الـ] انتساب للحضارة القديمة . [2] فالدولة العالمية والكنيسة العالمية إذن علامتان على حضارة منحلة ، يرجع السبب

---

[1]- Sorokin – Modern Historical and social Philosophies p:117

[2]- Ibid P P : 117 – 118 .

فى نشأتهما إلى عجز الأقلية السائدة عن العطاء . ولاحظ توينبي أن الدهماء أنتجت الديانات السامية التي تنشد تجسيد ذواتها فى كنائس عالمية،وأن البروليتاريا الخارجية أنتجت عصورالملاحم وهى تراجيديا للجيران الهمجيين". (١)

ويذهب توينبى إلى نفس المعنى فى كتابه "الحضارة فى الميزان: فيقرر أن النظام المطرد لانحلال المجتمع هو انقسامه إلى طبقة متمردة من الدهماء الكادحين وأقلية قوية مسيطرة يتضاءل عدد أفرادها يوماً بعد يوم . ولا تسير عملية الانحلال سيراً منتظماً بل تسير مهتزة على نوبات متعاقبة بين هزيمة وانتعاش ثم هزيمة ثانية وهكذا . وفى الانتعاش الأخير تنجح الأقلية المسيطرة مؤقتا فى القضاء على داء الانقسام الفتاك الذى يهدد المجتمع من الداخل ، فتؤلف من هذا المجتمع دولة عالمية تفرض عليه السلام. وفى داخل نطاق الدولة العالمية التى تؤلفها الأقلية المسيطرة تنشئ الدهماء كنيسة عالمية ، وبعد ان تحدث الهزيمة التالية التى تتلاشى فيها الحضارة المضمحلة تماماً قد تواصل الكنيسة العالمية حياتها لتصبح النفغة التى تنبثق منها فى النهاية حضارة جديدة . (٢) .

لقد تعرضت نظرية توينبى لانتقادات لاذعة ومنها أن توينبى ليس مؤرخاً امبريقياً أولاهوتياً جيداً. وبدلاً من مناظرة أوغسطين وكل آباء الكنيسة أى ان المسيحية هى الأنباء الأخيرة لأنها الأنباء الخيرة ولأن الله تجلى بذاته مرة واحدة فى التاريخ فقط ومن أجل الجميع ، فإنه يتساءل عن الأسس الفلكية . وبدلاً من التثبت عن طريق معرفة الإيمان أن المسيحية حقيقة أو عن طريق معايير التاريخ أنها كانت ذات مرة ناشئة وهى لهذا

---

[1]- Toynbee Arnold J. A Study of History – 7 A universal States – oxford university Press London – New York – Toronto – 1963 P : 1

[٢] ــ توينبى ــ الحضارة فى الميزان ــ ترجمة أمين محمود الشريف صـ ٢١

تكون الآن قديمة ، فإنه أشار إلى الاكتشافات العلمية الحديثة للجيولوجيين والفلكيين وهى التى قد غيرت على نطاق واسع مقياس عصرنا ، الذى تكون عليه بداية التقويم المسيحى تاريخا جديدا إلى أبعد حد .

ولكن كيف يمكن أن نستخلص من "حقيقة" فلكية "دلالة" تاريخية دينية أيضا ؟ إنه اعتقاد ساذج ، بغض النظر عن الدليل الفلكى وبغض النظر أيضا عن الدراسة الامبريقية للتاريخ، التى أدت بتوينبى إلى التأكيد على ان المسيحية تظل حادثة جديدة وإنها سوف لا تنجو فقط من حضارتنا الغربية بل حتى تصبح دين العالم . إنه يعتقد أن الاتحاد التقنى للعالم الحديث يمكن أن يخدم غرضه التاريخى "عن طريق تزويد المسيحية لكى تنتشر بتكرار العالم الشاسع للإمبراطورية الرومانية بصورة كاملة" . فماذا يحدث أليست "المسيحية يمكن أن تكون يسارية بوصفها وريث روحى لكل العلاقات السامية الأخرى ... ولكل الفلسفات من اخناتون إلى هيجل، بينما الكنيسة المسيحية بوصفها تكوينا ، "يمكن أن يكون يساريا شأنه شأن الميراث الاجتماعى لكل الكنائس الأخرى وكل الحضارات . " [١]

الدين والحضارة

إن برنامج توينبى المقترح لقيام وسقوط الحضارة هدمته مقدماته اللاهوتية وهى التى جعلت عمله الضخم عملا ثيوديسيا أكثر منه عملا تاريخيا . [٢] وفضلا عن ذلك فى حضارته فى الميزان ، فإن توينبى قد غير إلى حد ما موقفه ، وبدلا من أن يجعل الدين جسرا بين سقوط وقيام الحضارات ، فإنه جعل الآن قيام وسقوط الحضارات المتتالية فى مجرد وسائل ثانوية من أجل نمو الدين . فالعملية التاريخية عنده أصبحت بأسوها

---

[1]- Lowith Karl – Meaning in History P : 14 – 15 .

[2]- Barnes – History of Historical writing P: 378 .

هكذا ثيوديسية ـــــ أى تحقيق تدريجى ، فى هذا العالم "للوصول إلى معرفة أفضل لله والوصول إلى محبته بصورة أكثر قرباً على طريقته الخاصة . [١] فإطاره التاريخى يرتكز على انحرافات لاهوتية ، وعجائب ، وطرائف وآثار يمكن أن تفزع أى طالب جامعى متبصر عقلانياً . [٢] فهدف توينبى من دراسة التاريخ هو نمو الدين . ولم يعد الدين عنده نقطة التقاء بين حضارة سابقة وأخرى لاحقة تابعة لها . إنه انطلق فى دراسته للتاريخ من مقدمات لاهوتية مما آثار ضده العديد من الانتقادات .

ويوضح لنا توينبى كيف يحدث انشقاق فى جسد الحضارة وروحها فيقرر بأن البروليتاريا الخارجية تنظم ذاتها وتأخذ فى مهاجمة اضمحلال الحضارة بدلاً من الكفاح على أنه انخراط فيها. وعلى هذا النحو يدخل الانقسام جسد الحضارة وروحها وينشأ عنه زيادة الفرقة والحروب القتالية التى تقود إلى الدمار . الانقسام فى الروح الذى يتجلى بذاته فى التغير العميق فى إدراك وسلوك أعضاء المجتمع المنحل . ويقود إلى ظهور أنواع شخصية متدفقة و"منقذين": أى الملاك الرئيسى والمستقبلية [المنقذين بالسيف] ، والرواقية المجردة وغير المكترثة ، وأخيراً ـــ يتبدل المنقذون الدينيون ، ويثبتون فى عالم روحى لله . [٣] .

ولكن عبثاً كل هذا وباستثناء التجلى فإن كل هذه الجهود و"المنقذين" لا توقف الانحلال. والطريق المثمر فقط يتحول إلى طريق التجلى ، وطريق تحول من الهدف والقيم إلى مملكة الله الروحية . فإنه ربما لا يوقف انحلال الحضارة ، لكن قد يصلح كبذرة لظهور وتطور حضارة جديدة متولدة . ومن خلال ذلك ، إنها تتحرك للأمام فى عملية

---

[1]- Sorokin – Modern Historical and social philosophies PP : 119 – 120 .

[2]- Barnes – History of Historical Writing P : 396 .

[3]- Sorkin – - Modern Historical and social philosophies P : 119 .

مستمرة لارتقاء الإنسان إلى الإنسان الأعلى ، ومن "مدينة الإنسان إلى مدينة الله،" بوصفها النهاية الحقيقية للإنسان والحضارة. "إن هدف التجلى هو أن يمنحها الضوء الذى ينفذ فى الظلام . . . إنه يستهدف بالبحث مدينة الله لكى يعيد حياتها إلى الفعل . . . فهدف التجلى هو هكذا مملكة الله".[١] .

ولكن كيف يمكن للإيقاع "العنصرى" من الين واليانج ودورة النمو والانحلال أن تجارى الاعتقاد بهدف ذى معنى و"التحول التقدمى" لحقيقة سامية فى التاريخ ؟ وكيف يمكن "للاقتصادى الحق" شأن توينبى ، فى أسلوب النيومان الكاثوليكى ، المسمى التوزيع المحكم ، أن يتصالح مع التأمل اليونانى والصينى ؟ وتتمثل إجابة توينبى فى أن العود الأبدى للدوران ليس تكرار بلا معنى إذا كان فى كل تحول يحمل الأداة التى تقربه أكثر إلى هدفه . فهذا التشبيه ، الذى يصور له ارتباطاً بين الدورة الكلاسيكية والميعاد المسيحى Christian eschaton ، يفترض أن الدوران يحمل الأداة [الدين] إلى المحرك [الله] الذى يعرف كيف يوجه قوة الطبيعة إلى ما وراء كل هدف. [٢] فحركة الحضارات كما يزعم توينبى فى كتابه "الحضارة فى الميزان" يمكن أن تكون دائرية ومتكررة ، بينما حركة الدين يمكن أن تكون على مستوى أعلى فردية مستمرة . "يمكن أن تكون صالحة ومدعومة فى عمليتها السماوية عن طريق دورات ميلاد وموت الحضارات . [٣]

لقد حاول توينبى التوفيق بين نظريتين متعارضتين فى التاريخ ، أولهما أن التاريخ يتسم بالطابع الدورى ، وهذه هى نظرة اليونان والهنود

---

[1]- I bid P : 119 .

[2]- Lowith Karl-Meaning in History P : 16 .

[3]- Sorkin Modern Historical and social philosophies P : 120 .

إلى التاريخ . وثانيهما هو النظر إلى التاريخ على أنه تنفيذ قاهر ومطرد على المسرح الضيق لهذا العالم لخطة إلهية . وهذه هى نظرة أنبياء إسرائيل ويهوذا وإيران . وقدم توينبى تشبيها مثيرا لهذه العملية . فالعربة إذا أريد لها أن تسير قدما فى الطريق الذى رسمه سائقها ، وجب أن تحمل على عجلات تدور على وتيرة واحدة والأمر بالمثل فإن الحضارات تقوم وتسقط ، وتولد حضارات أخرى حالة سقوطها ، فقد يكون ثمة مصير محدد لغرض أسمى من غرض الحضارة كلها يسرع بالتقدم إلى الأمام . وقد يكون التعلم الذى يأتى بالتألم الناشىء عن إخفاق الحضارات هو الوسيلة الفعالة فى التقدم طبقا لخطة إلهية . [1] .

إن عمل روح الأرض كما ينسج ويجذب خيوطه على منول الزمن، هو تاريخ الإنسان المعاصر كما يتجلى هذا بذاته فى تكوين ونمو وانهيار وانحلال المجتمعات الإنسانية . وفى كل اضطراب الحياة هذا . . . فإننا يمكن أن نسمع دقة الإيقاع العنصرى . . . من التحدى والاستجابة والانسحاب والارتداد والاضطراب والتجمع والظهور والانتماء والاتحاد والانقسام والتناسخ . فهذه النغمة العنصرية هى عبارة عن البديل الحقير للين واليانج . ولم يكن العود الأبدى للدوران تكرارا بلا جدوى لو أنه فى كل تحول يحمل الأداة التى تجعله أكثر قربا لتحقيق هدفه ، ولو أشار "التناسخ" إلى ميلاد أى شىء جديد . . . عندئذ فإن دوران الوجود لن يكون مكيدة شيطانية تماما لإيقاع العذاب الأبدى على رءوس الهالكين . والموسيقى أى تناغم الين واليانج البغيض هى أغنية . . . الإبداع والإبداع لن يكون خلاقا إن لم يبتلع فى جوفه كل الأشياء فى الأرض والسماء ، بما فى ذلك نقائضه الذاتية . [2] .

---

[1] ــ أرنولد توينبى ــ الحضارة فى الميزان ترجمة أمين محمود الشريف ص ٢٢ــ ٢٣ .

[2]- Sorokin Modern Historical and social philosophies P : 120 .

التاريخ الكلى للعالم والنظرية الغائية

"فرنسيس فوكوياما"

تتسم نظرية فوكوياما (*) فى التاريخ بأنها غائية وتعنى الغائية عنده أن التاريخ لا ينتهي إلى أوضاع مثالية فى المستقبل وإنما ينتهي فى الحاضر . وقد كانت نهايته الحقيقية فى أعقاب الثورة الأمريكية حيث تحققت الحرية فى المجال الاقتصادي والسياسي وذلك في ظل الدولة العامة المتجانسة . وحول هذه الأفكار فقد تركز هذا الموضوع حول النقاط الآتية :

فوكوياما والنظريات المعاصرة فى التاريخ .

نظرية فوكوياما فى التاريخ .

التاريخ وآلية الرغبة .

التاريخ والثيموس .

الأساس الثيموسى للحرب والامبريالية .

(*) ولد فرنسيس فوكوياما فى ٢٧ أكتوبر ، ١٩٥٢ فى مدينة شيكاغو وحصل على شهادة الليسانس من جامعة "Cornell" فى الكلاسيكيات وحصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة "Harvard" فى العلم السياسى وتزوج من لورا هولمجرن "Laura Holmgern" ولديه ثلاث أطفال .

ومن أهم مؤلفات دكتور فوكوياما كتابه الشهير ، وهو نهاية التاريخ وخاتم البشر ، "The End of History and The Last Man" الذى نشر فى عام ١٩٩٢ وقد ظهر فيما يزيد عن عشرين طبعة أجنبية . وقد وجدت قوائم المبيعات قبولا فى الولايات المتحدة ، فرنسا ، اليابان ، وتشيلى . وكتابة الأكثر حداثة هو الفضائل الاجتماعية وإيجاد الرفاهية The Social Virtues and the creation of prosperity نشر فى يوليو سنة ١٩٩٥ إنه متوفر فيما يزيد عن عشرين طبعة أجنبية فالأوربى أطلق عليه فى سنة ١٩٩٥ "كتاب العام للعمل" وكان على قمة عشر كتب أعمال فى قائمة عام ١٩٩٥ .

وقد كتب دكتور فوكاياما باستفاضة عن موضوعات متصلة بتساؤلات تخص الديموقراطية والاقتصاد الدولى السياسى . وقد ركز فى السنوات التالية ، علىدور الثقافة ورأس المال الاجتماعى فى الحياة الاقتصادية الحديثة . وقد كتب فى الماضى وإلى حد بعيد عن السياسة السوفيتية الأجنبية فى العالم الثالث . ويعكف الآن على كتاب يقع تحت عنوان تمزيق الإغريق وهو الأصل فى النظام الاجتماعى "يمكن الرجوع إلى شبكة المعلومات عن حياته" .

فوكـــويامـــا والنظريـــات المعاصـــرة في التاريخ

إذا جـــاز لنا البحث في نظرية فرنسيس فوكوياما عـــن التـــاريخ فالأولى بنا قبل القيام بهذا البحث أن نشير إلى أهم النظريات المعاصرة فـــي التاريخ .

فهيجل وهو الفيلسوف الذي كان له عظيـــم الأثـــر علـــى نظريـــة فوكوياما في التاريخ قد قسم مشروعه في التاريخ إلى عدة مراحل متعاقبـــة إنتهت بشيخوخة التاريخ ونهايته وفيها تحققت الحرية تحققاً كاملاً وتجلـــى هذا التحقق في العالم الجرماني . [١] أما ماركس فتمثلت نهاية التاريخ عنـــده في مجتمع شيوعي لا طبقي . وتمثلت نهاية التاريخ عند فوكوياما في قيـــام الدولة المتجانسة التي تستوعب في جوفها الرأسمالية الحرة والديمقراطيـــة الليبرالية . فالتاريخ عنده كما هو الحال عند هيجل ومـــاركس يتجـــه نحـــو غاية . ومن ثم فلا مكان لنظريات التعاقب الدوري للحضارات .

وبمزيـــد من الإيضاح يذكـــر فوكوياما أن هيجـــل كان يؤمن بـــأن للتاريخ نهاية . ولا يعنى هـــذا عنـــده كمـــا يـــــرى فوكوياما توقـــف الأحـــداث الناجمة عن الولادة والموت والتفاعـــلات الاجتماعية بين البشـــر ،كما لا يعنى أن معارفنا عن العالم ســـتتوقف عـــن النمـــو . ويذكـــر أن هيجـــل قـــد عرف التاريخ بأنـــه تقدم الإنسان صوب مستويات أرقى مـــن العقلانيـــة والحرية . ولهذا المسار نقطة نهائيـــة منطقيـــة هـــى بلـــوغ الوعى المطلق بالنفس . وهـــذا الوعى بالنفس عنـــده قائـــم في نظامـــه الفلسفي ، كما أن الحرية الإنسانيـــة مجســـدة فـــي الدولـــة الليبراليـــة الحديثـــة التي ظهـــرت في أوربـــا في أعقاب الثـــورة الفرنســـية ، وفـــي رأى فوكـــويامـــا أيضـــاً كما يقـــرر هو نفسه في أمريكـــا الشـــمالية فـــي أعقـــاب الثورة الأمريكية . ويرى أن ماركس اتفق مع هيجـــل على احتمال انتهاء التاريخ ، متنبئـــاً ببـــزوغ شكل نهائـــي للمجتمـــع ، خـــال مـــن التناقضـــات ، يكون في تحقيقه نهايـــة المســـار التـــاريخي . وهـــو تحقيـــق المدينـــة الفاضلـــة ، الشيوعيـــة العالميـــة التي ســـتضع حـــداً للصـــراع الطبقي بصورة نهائيـــة.[٢] فالتاريـــخ عنـــد هيجـــل ومـــاركس

---

(1) Hegel the philosophy of history pp : 18 - 19 - 456 .

(٢) فرنسيس فوكوياما ــ نهاية التاريخ وخاتم البشر ــ ترجمة / حسين أحمد أميـــن ــ مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٩٣ ص ٧٢ــ٧٣ .

بهذا المعنى كما أوضح فوكوياما يتسم بالغائية لا بالطابع الدوري .

أدت الغائيـــة في التاريخ بهيجل وماركس إلى التأكيـد على وجـود شكل اجتماعي نهائي تتوقف عنـده مسيـرة التاريخ . فالتاريخ عند هيجـل ينتهي بتحقيق الحرية والمسـاواة بصـورة كاملة . والماركسيـة تأخـذ في اعتبارهـا كيف يتحـول شكل التنظيم الاقتصادي الاجتماعي إلى شـكل آخر عبر الصراع الطبقي . وزعم إنجلـز ومـاركس فـي الأيديولوجيـة الألمانيـة ١٨٤٦ بـأن المجتمعـات البدويـة تتحـول إلـى مجتمعـات زراعيـة مستقـرة وهي التي تقـوم على علاقـات إقطاعيـة لملكيـة الأرض . وفي النهايـة ينهـار الإقطاع بظهور طبقة من الحرفيين الأثريـاء وطبقـة رأسـمالية برلمانيـة خاصـة . وهـذه الطبقـة الرأسـمالية البورجوازيـة سـوف تنهار في النهاية عن طريق طبقـة البروليتاريـا أو الطبقـة الكادحـة وهـم الذين يعـدون عملهم مفخرة من أجل الكسـب . ولكن بعـد فتـرة قصيـرة فـإن صرامة ديكتاتوريـة البروليتاريـا التـي انهارت فيهـا الطبقـة الرأسماليـة ودولتهـا أقامت مجتمعـاً شيوعيـاً لا طبقياً .[1] يعمل فوكوياما على إثبـات أن الغائيـة نظريـة أشـد تماسـكاً وأحكم منطقـاً من النظرية الدورية ، هـذا مـا أراد أن يثبتـه في كتابـه " نهايـة التاريـخ " .

وكمـا اعتـرف فوكـوياما ، فـإن فلسفة هيجل بصفة خاصـة كما فسرها الكسندر كوجيف ، كانت الإلهـام النظري العـام لـ " نهايـة التاريخ " ومهما يمكن أن يقال عن فلسفة هيجل ، أو تفسيرهـا لكوجيـف ، فإنهـا بـدون شك يمكن أن تتطلب نظرة عقلية إلى العالم غيـر عاديـة . ففي محاضراته الشهيرة التي ألقاها في سبتمبر ١٩٣٠ عن كتـاب هيجـل الأول ، فينومينولوجيا الـروح ، قال لنا كوجيف أن التاريخ " لا يمكن فهمه حقـاً بدون الفينومينولوجيا" ومع ذلك أنـه " يوجـد تـاريخ لأنـه توجـد فلسفة " [2] فنظريـة فوكـوياما إذن هي التطبيق الفعلي لفلسفة هيجـل . فهيجـل هو بمثابة الضوء الذي استضاء به فوكوياما .

---

(1) Priest Stephen - Jean - Paul Sarter . Basic Writing - London and New York - 2000 Pp : 300 - 301 .

(2) Http : // www . Sais - Jhu – edu / Faculty / Fukuyama – by Roger Kimball Pp : 2-3 .

ولنتناول الآن بالدراسة والتحليل موقف فوكوياما من نظرية التعاقب الدوري للحضارات . فعنده أن النظرية الدورية قديمة تضرب بجذورها في الفكر القديم ، فأفلاطون قد تحدث في جمهوريته عن دورة طبيعية معنية للأنظمة ، بينما ناقش أرسطو في كتابه " السياسة " أسباب الثورة وكيفية حلول نوع من الأنظمة محل نوع آخر . وكان من رأى أرسطو أنه ما من نظام في إمكانه أن يرضى المرء إرضاءً تاماً ، وأن السخط قد يدفع الناس إلى إحلال نظام مكان نظام في دورة لا نهاية لها . ولم تتخذ الديمقراطية عندهما مكانة مميزة في هذه العملية التي تحدثا عنها ، ليس فيما يتصل بفضائلها ولا ما يتصل بثباتها . وإنما كان من رأيهما معاً أن الديمقراطية تنزع إلى إفساح الطريق أمام الاستبداد . كذلك فإن أرسطو لم يفترض استمرار التاريخ . فهو يرى أن جذور دورة الأنظمة هي في دورة طبيعية أكبر ، تحدث خلالها كوارث دورية كالفيضانات ، فتقضى لا على المجتمعات البشرية القائمة فحسب ، وإنما أيضاً على كل الذكريات المتصلة بها . لتضطر الإنسان إلى أن يبدأ مساره التاريخي مرة ثانية من بدايته . وباختصار فالتاريخ في رأى الإغريق كما يذكر فوكوياما ليس علمانياً وإنما يدور في دورات .[1] بهذا المعنى الذي ذكره فوكوياما فلم يكن لدى الإغريق أى تصور عن التاريخ الغائي ، وكل ما عرفوه فقط هو أن التاريخ يدور في دورات لا نهاية لها .

أما شبنجلر وتوينبى كما يرى فوكوياما فقد قسما التاريخ إلى تواريخ شعوب متميزة ــ " حضارات " في الحالة الأولى ، و "مجتمعات" في الحالة الثانية ــ كل منها خاضع لقوانين معينة متشابهة تحكم نموها وتحللها . ويرى فوكوياما أن شبنجلر وتوينبى قد خرجا عن التقليد الذي بدأه المؤرخون المسيحيون ، ووصل إلى أوجه في كتابات هيجل وماركس ، الذي يرى وحدة في تاريخ البشرية وتقدماً مرحلياً صوب غاية . والواقع أن شبنجلر وتوينبى كما يرى فوكوياما يعودان على نحو ما إلى التواريخ ذات الدورات لشعوب مفرده ، وهي التي ميزت الكتابة التاريخية لدى الإغريق والرمان.[2]إن هذه النظرة الحيوية الدورية إلى التاريخ

١ــ فرنسيس فوكوياما ــ نهاية التاريخ وخاتم البشر ــ ترجمة حسين أحمد أمين ــ مركز الأهرام للترجمة والنشر ــ الطبعة الأولى ١٩٩٣ ، ص٦٥ .

٢ــ المرجع السابق ص٧٥ .

لم تقنع فوكوياما على الإطلاق ، إنه يقول عن كتاب أوزوالد شبنجلر " أفول نجم الغرب " ، وكتاب أرنولد توينبى " دراسة التاريخ " إن " الإقبال على قراءة الكتابين وقت ظهورهما كان عظيماً ، فإن في الكتابين عيباً عضوياً نابعاً من نزعتهما العضوية ، يتمثل في تشبيه الحضارة أو المجتمع بالكائن العضوي البيولوجي ، وهو تشبيه مشكوك في صحته " .[١] ويقول أيضاً في نفس الموضع أنه " لا شبنجلر ولا توينبى في مثل جدية سلفيهما الألمانيين " [٢] . من هنا نجد أن فرنسيس فوكوياما يرفض إخضاع التاريخ الكلي للعالم لقوانين عامة . فالتاريخ عنده يتحرك نحو غاية محددة . إن هذه الغاية هى الحرية ، وهى المحور الذي يتحرك حولها التاريخ .

إن التاريخ الغائي عند فوكوياما يعنى أنه ليس بوسع أى شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي يتجاوزه مجتمع ما ، أن يتكرر في نفس المجتمع [رغم أن المجتمعات المختلفة في المراحل المختلفة من تطورها قد تكرر نمطاً مشابهاً من التطور] . والنظريات الخاصة بدورات التاريخ أو عفوية أحداثه كما يقرر فوكوياما لا تستبعد احتمال التغير الاجتماعي وقدراً محدوداً من مظاهر الانتظام في عملية التطور ، بيد أنها لا تحتاج إلى أى مصدر للعلية التاريخية . كذلك فإن عليها أن تقر أيضاً مساراً للتحلل يتلاشى بمقتضاه تماماً الوعي بانجازات الماضي . وذلك لأنه بدون احتمال النسيان الكامل للتاريخ ، ستؤسس كل دورة على أساس من خبرات الدورات السابقة ولو بقدر ضئيل . [٣] هذا ما ذكره فوكوياما عن الغائية حتى الآن .

إن المؤرخ الهويجى يمكنه أن يرسم خطوطاً من خلال حوادث معينة ، ... فإذا لم يكن حذراً فإنه يأخذ في نسيان أن هذا الخط ليس إلا مجرد حيلة عقلية من عنده ؛ فيصل إلى تخيل أنها تمثل شيئاً ما يشبه خط العلية . والنتيجة الكلية لهذه الطريقة هى فرض شكل معين على القصة التاريخية برمتها ، وإيجاد خطة للتاريخ العام الذي يرتد في تجمع على نحو رائع في الحاضر . [٤] طبعاً لم يبرأ فوكوياما من هذا المصير فعنده أن ثمة أسباباً تمكننا من فهم غائية التاريخ .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٥ .
(٢) المرجع السابق ص٧٥ .
(٣) المرجع السابق ص ٧٧ .
(4) Http : // www . Sais – Jhu – edu / Faculty / Fukuyama – by Roger Kimball P : 1 .

نظرية فوكوياما في التاريخ

تتمثل الغائية في التاريخ عند فرنسيس فوكوياما في وجود دولة متجانسة . وتتألف عنده هذه الدولة المتجانسة من الرأسمالية الليبرالية في مجال الاقتصاد والديمقراطية الليبرالية في ميدان السياسة .

والحرية في نظر فوكوياما تمثل نهاية التاريخ ، إنها المحور الأساسي الذي يدور حوله التاريخ العالمي ، يقول فوكوياما " إن أكثر محاولات كتابة تاريخ عالمي قد كانت جدية ومنطقية ، تُرى منذ البداية ، أن المحور الرئيسي للتاريخ هو نمو الحرية ، فليس التاريخ سلسلة عمياء من الأحداث ، وإنما هو كل ذو مغزى نمت فيه أفكار البشر حول طبيعة النظام السياسي والاجتماعي العادل ومضى بها إلى غايتها " .[١] يشيد فوكوياما في هذا الصدد بنظريات التاريخ التي تؤكد على أثر الحرية وأهميتها في التاريخ ويرفض النظريات التي تفسر التاريخ تفسيراً حتمياً ، إنه ينحاز إلى المسيحية وكانط وهيجل والكسندر كوجيف في القرن العشرين . بينما التصور اليوناني للتاريخ عنده وكذلك النظريات التي سارت على شاكلته في القرنيين التاسع عشر والعشرين قد فشلت في كتابة تاريخ عالمي . فالتاريخ الكلي للعالم عند فوكوياما إذن يتجه نحو الحرية بوصفها غايته النهائية .

تحدث أفلاطون في جمهوريته عن أن للروح ثلاث قوى وهي : الشهوة ، والعقل وما يسميه الثيموس أى " الهمة والشجاعة " أو " القوة الغضبية " .[٢] وعلى أساس قوى الروح الثلاث هذه وضع فوكوياما نظرية في التاريخ تؤكد على الغائية في التاريخ .

فالكثير من مظاهر السلوك البشري كما يقرر فوكوياما يمكن تفسيره بأنه امتزاج بين القوتين الأوليين ، الشهوة والعقل . فالشهوة عنده تدفع الناس إلى السعي من أجل الحصول على أشياء خارجهم ، في حين يبين لهم العقل [أو التقدير الواعي] أفضل السبل للحصول على هذه الأشياء . غير أن هناك أيضاً سعياً من جانب البشر إلى نيل الاعتراف بقدرهم ، أو الاعتراف بقدر الأشخاص أو الأشياء أو المبادئ التي يرون لها قدراً كبيراً .[٣]

---

(١) فرنسيس فوكوياما – نهاية التاريخ وخاتم البشر / ترجمة حسين أحمد أمين ص٦٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢ ــ ١٣ .

(٣) المرجع السابق ص ١٣ .

وبالبحث في هذه النقطة نجد المنفعة التي تنشأ عن الامتزاج بين الشهوة والعقل ، فهذه المنفعة تعد التربة الخصبة لنمو الرأسمالية . وهذه النظرة لا تعبر عند فوكو ياما إلا عن الغائية في التاريخ . والثيموس تنتهي كذلك إلى غاية محددة وهي الديمقراطية . وباختصار فإن التاريخ لا يعيد نفسه كما تصوره الإغريق القدماء وشبنجلر وتوينبي في العصر الحديث .

ويوضح فوكوياما هذه العملية التي تتحكم في التاريخ بقوله " إن الرغبة والعقل يكفيان معا لتفسير عملية التصنيع وتفسير جوانب كثيرة من الحياة الاقتصادية بوجه أعم . غير أنهما لا يستطيعان أن يفسرا النضال من أجل الديموقراطية الليبرالية الناشئ عن الثيموس ، أو ذلك الجانب من الروح الذي يتطلب الاعتراف والتقدير " .[1] ومن هنا فإن قوى الروح الثلاث الشهوة ، العقل والثيموس هى العناصر الأساسية التي تتحكم في التاريخ ، وإذا أردنا كتابة تاريخ عالمي حقيقي فعلينا أن نضع في اعتبارنا هذه العناصر . وما الدولة العامة المتجانسة التي يمكن أن تظهر في نهاية التاريخ إلا نتاج هذه القوى الثلاث .

والسؤال الذي يفرض نفسه علينا كيف تحقق قوى الروح هذه ذاتها وتعمل عملها داخل الدولة العامة المتجانسة ؟ ويجيب فوكوياما بأن الدولة العامة المتجانسة ترتكز على أساسين : الاقتصاد والاعتراف . فالمسار التاريخي الإنساني الذي يؤدي إلى تلك الدولة كان يدفعه إلى الأمام محركان متساويان : الازدهار المستمر في العلوم الطبيعية الحديثة ، والسعي إلى نيل الاعتراف . فأما الأول فنابع من القوة الشهوانية للنفس التي تحررت في أوائل العصر الحديث واتجهت إلى تكوين الثروات بلا حدود بفضل تحالف الرغبة والعقل ، وذلك بالنظر إلى الارتباط الوثيق بين الرأسمالية والعلوم الطبيعية الحديثة . أما الصراع من أجل نيل الاعتراف فنجم عن (الثيموس) .[2] إن هذين العنصرين وأعني بهما الاقتصاد والاعتراف يرتدان في النهاية إلى قوى النفس الثلاث ، فالاقتصاد ينمو بفضل التقدم في العلوم الطبيعية ، وهذا التقدم في العلوم الطبيعية إنما يتحقق نتيجة للرغبة والعقل . والحاجة إلى الاعتراف والتقدير إنما ترجع إلى الثيموس وهى التي تتسم بالحرية .

---

(١) المرجع السابق ص١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٤ .

وخلاصة هذا كله أن الرغبة والعقل يعملان على المحافظة على الذات بينما الثيموس هى القوة الروحية التي تشعر الإنسان بأنه حر . والتاريخ الكلي للعالم على هذا الأساس لا يمكن فهمه إلا في ضوء هذه القوى ومن ثم فالاقتصار على جانب واحد يجعل وصف التاريخ غير كامل .

التاريخ وآلية الرغبة :

لقد رفض فوكوياما التفسير الدوري للتاريخ . وإنحاز إلى الجدل الهيجلي ، فهو في نظره المنطق الحقيقي الذي يسير بمقتضاه التاريخ . إن فوكوياما بدأ من الطرف المضاد للماركسية واستخلص من نظرية هيجل نتائجها . فبدلاً من الاقتصاد الشيوعي كما هو الحال عند الماركسية فإن الجدل سيؤدي بنا إلى الرأسمالية الحرة أو اقتصاديات السوق ، وتبعاً لنظرية هيجل فإن التاريخ سيتجه صوب الديمقراطية الليبرالية .

أورد فرنسيس فوكوياما في مواضع عديدة من كتابه نهاية التاريخ وخاتم البشر الكثير من العبارات التي أعرب فيها عن إعجابه بنظرية هيجل في التاريخ ، والتاريخ في نظره إنما يتحرك في مسار ديالكتيكي يتجه صوب غاية محددة وهي الحرية . والنقطة الأساسية التي ينطلق منها فوكوياما في مجال الاقتصاد ليصل إلى الرأسمالية الليبرالية هي المنهج العلمي الذي أدى إلى تقدم العلوم الطبيعية في القرون الأربع الحديثة . فإذا كان التاريخ في نظره لا يعيد نفسه أبداً فلابد أن هناك آلية دائمة وواحدة عنده ، توجه مساره وتتحكم فيه . [1] فنظريات التعاقب الدوري للحضارات لا يمكنها أن تقدم تفسيراً صحيحاً للتاريخ . والمنطق الجدلي هو المنطق الوحيد الذي يحكم حركة التاريخ بأسره .

لقد كانت العلوم الطبيعية الحديثة مصدر إلهام للكثيرين أمثال شبنجلر وتوينبي وفوكوياما وغيرهم . فاشبنجلر إعتقد أن التاريخ عليه أن يسير على نمط علوم الطبيعة وذلك باستخدام الحدس أكثر من استخدام المناهج العلمية الخالصة . فالتاريخ عنده يستند على التأمل والمقارنة والتأكد الداخلي المباشر والتقدير الحقيقي للعواطف.[2] وتحدث أيضاً توينبي عن ثلاث وسائل مختلفة

---

(١) المرجع السابق ص٧٧ .

(٢) روبرت لافون ــ جرامون ــ قضايا الساعة ــ ترجمة / نادية القباني ، ص ٦٩ .

لمعاينة موضوعات تفكيرنا وهى : الأولى تحقيق الوقائع وتسجيلها ، الثانية استخلاص قوانين عامة عن طريق دراسة مقارنة للوقائع المحققة ، الثالثة إعادة تصوير الوقائع بطريقة فنية في مصنف خيالي .[١] أما فوكوياما فإنه اعتبر منذ البداية أن العلوم الطبيعية الحديثة هى الآلية التي نفهم من خلالها الغائية في التاريخ . ومن ثم فإنه ربط بين هذه العلوم والاقتصاد .

إنه المنهج العلمي الذي اتبعه ديكارت وجاليليو وبيكون وغيرهم . فكان لجاليليو تأثيراً كبيراً في الفيزياء قرابة نصف قرن حتى ظهر عمل إسحاق نيوتن ، الذي استنتج فيه كيف تستخدم ملاحظات القمر والحركات الكوكبية في وضع نظرية رياضية للأجسام الثقيلة تلك التي صححت قوانين جاليليو .[٢] فالمنهج العلمي الذي يقوم على الملاحظة وليس التأمل الميتافيزيقي العقيم هو وحده الذي أدى إلى التقدم .

وعند بيكون سنصلَ عن طريق النهوض بالعلم وتطويره ، وعن طريق البدء بالملاحظة ومن ثم تطوير النظريات تطويراً يصل بها إلى درجة من التحديد ، عن طريق سلم الاستقراء سنصل إلى أشد النظريات أساسية ، ألا وهى الميتافيزيقا العلمية . فهذه الميتافيزيقا ستكون علمية ، لأنها لن تتحقق بالمنهج التأملى ، وإنما بالمنهج الاستقرائي وهى جزء من الفلسفة الطبيعية .[٣] وغالباً ما يستخدم تعبير الفلسفة الطبيعية ، لاسيما في الأدب الخاص بتاريخ العلم على وجهين : فإما أنه يستخدم بطريقة مفارقة باعتباره مرادفاً لـ "العلم" ـ أى المفارقة التاريخية ، منذ أن استحدث القرن التاسع عشر "العلم" باعتباره

1- Toynbee Arnold J . Astudy of History by Somervell D.C. p;43 .

١- أرنولد توينبي ـ مختصر دراسة التاريخ ـ ترجمة/فؤاد محمد شبل،ص ٧٢ .

2- Stephen Gaukroger , John Schuster and John Sutton – Deseartes, Natural Philosophy – London and New York – 2000 Pp: 126 – 127 .

٣ـ دكتور محمود رجب ـ الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين ـ الطبعة الثانية دار المعارف ١٩٨٦ ، ص٢٣٥ .

تعبيرا يدل على ، الوحدة المفترضة ، منهجيا وتكوينيا ، لكل بحث في الطبيعة . أو بمزيد من التبرير ، أنه يستخدم بوصفه مرادفا لـ " العلوم " ، ويعنى وسيلة من التقاليد الضيقة للتطبيق العقلي الذي وجد في المرحلة الحديثة المبكرة على غرار التصميمات الكلاسيكية ، كالفلك ، والبصريات ، والميكانيكا ، والتشريح ، والنظرية الموسيقية ، وما شابه ذلك . وفضلا عن هذا ، يكون الكلام بصورة دقيقة في المرحلة الحديثة المبكرة عن تعبير " الفلسفة الطبيعية " دالا على محاولة في شرح طبيعة المادة ، البناء الكوني لتلك المادة ، مبادئ العلية ، والميثودلوجيا من أجل اكتساب مثل هذه المعرفة الطبيعية أو تبريرها بطريقة نسقية .[1] إن التقدم في العلوم الطبيعية بفضل استخدام أساليب جديدة في التفكير سيؤدي حتما في نظر فوكوياما إلى الرأسمالية الليبرالية أى اقتصاديات السوق .

فالمنهج المرتبط بجاليليو وبيكون وديكارت كما يعلن فوكوياما، يفترض إمكانية معرفة كنه الطبيعة ومن ثم السيطرة عليها ، وهو ما يخضع بدوره لمجموعة من القوانين المترابطة العالمية . وتتسم المعرفة بهذه القوانين بأنها تراكمية . فمنذ زمن بعيد ظلت المعارف العلمية تتراكم ، وكان تأثيرها متواصل في تشكيل الطبيعة الأساسية للمجتمعات البشرية . وثمة تغيرات كيفية طرأت على لعلاقة بين المعارف العلمية والمسار التاريخي بظهور العلوم الطبيعية " الحديثة " . ولم تكن إمكانية السيطرة على الطبيعة كما يرى فوكوياما التي وفرتها العلوم الطبيعية الحديثة قائمة في جميع المجتمعات . وإنما أتيح ابتكارها عند نقطة تاريخية معينة بفضل بعض الأوربيين . غير أنه باكتشاف المنهج العلمي أصبح المنهج ملكا شائعا بين الناس جميعا ، وفي متناول الجميع. فاكتشافه أحدث قسمة أساسية غير دورية في الزمن التاريخي إلى الفترة السابقة عليه والفترة التالية له . [2] هنا وفي هذه النظرة ليس ثمة تكرار للأحداث التاريخية ، فالتاريخ عند فوكوياما لا يعيد نفسه . والعلوم الطبيعية الحديثة عنده هى آلية الرغبة التي تمكننا من فهم التاريخ ، إذ أنها تتجه نحو غاية وهي الرأسمالية .

1- Stephen Gaukroger, John Schuster and John Sutton - Descartes, Natural Philosophy Pp : 1 - 2 .

٢ــ فرنسيس فوكوياما ــ نهاية التاريخ وخاتم البشر ــ ترجمة / حسين أحمد أمين ، ص ٦٦ ، ٧٨ .

وبمزيد من الإيضاح نقول أن العلوم الطبيعية في مجموعها تحقق لنا هدفين أساسيين : أحدهما عملي والآخر نظري . أما الهدف العملي فهو تحقيق الرفاهية للإنسان وتقديم أسباب الراحة والطمأنينة في حياته العملية ، وهذا الهدف هو الذي عناه فرنسيس بيكون بعبارته المشهورة " المعرفة قوة " أى أن العلم هو أداتنا للسيطرة على الطبيعة ولاستغلاله لراحة الناس ورفاهيتهم . وأما الهدف النظري للعلوم فهو محاولة فهم العالم الطبيعي حولنا وما يحدث فيه من ظواهر ووقائع ووصفه ، وفهم هذا العالم هو جعله مقبولاً لدى العقل . [١] في إطار هذه النظرة نلاحظ أن الهدف العملي للعلوم الطبيعية في مجموعها هو الذي استفاد منه فوكوياما في إقامة نظريته التاريخية ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة له فهو أمريكي غارق في الواقع العملي المتمثل في الاقتصاد .

وعندما يتحدث فوكوياما عن الغائية في التاريخ نجد أنه يقوم بعملية ربط بين الرغبة والعقل وبين التصنيع والإنتاج أى الاقتصاد ، ومن ثم تكمن وظيفة العلوم الطبيعية ، وهى الآلية الدائمة التي توجه مسار التاريخ وتتحكم فيه . يقرر فوكوياما أن العلوم الطبيعية تمثل النشاط الاجتماعي الهام الذي يتفق الناس على أنه يتسم بالنمو والتراكم والغائية . والمجتمعات التي شهدت نمو العلوم الطبيعية قد كانت لها نفس التأثير الذي أحدثته تلك العلوم فيها . [٢] والخلاصة عنده إذن أن العلوم الطبيعية الحديثة وازدهارها وما يترتب عليها من تاريخ غائي وتحولات اجتماعية إنما ترتد إلى مبدأ المحافظة على الذات الذي يتمثل في صورة الرغبة والعقل .

يرى فوكوياما أن العلوم الطبيعية الحديثة تقود إلى الاقتصاد الرأسمالي . ومن ثم فالمذاهب الفكرية المنافسة له على اختلافها وتنوعها قد أغفلت هذه الحقيقة ، والتجربة الواقعية عنده تؤيد ذلك . ويرى أيضاً أن " منطق العلوم الطبيعية الحديثة " هو تفسير اقتصادي للتحول التاريخي ، وهو تفسير على عكس التفسير الماركسي ،فهذا التحول مصيره النهائي إلى الرأسمالية لا إلى الاشتراكية.[٣] ويعتبر فوكوياما أن هذه

---

(١) دكتور محمود زيدان ــ مناهج البحث في العلوم الطبيعية المعاصرة ــ دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٠ ، ص٩ .

(٢) فرنسيس فوكوياما ــ نهاية التاريخ وخاتم البشر ــ ترجمة / حسين أحمد أمين ، ص ١٠ ــ ١١ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٠٧ ، ١١٢ .

المحاولة الأولى التي تقود إلى اقتصاديات السوق ليست ناجحة تماماً ، كما أنها ليست كافية أيضاً لتفسير التاريخ تفسيراً كاملاً .

والنقطة الأساسية التي يعطيها فوكوياما أهمية خاصة في موقفه هذا هى أن العلوم الطبيعية الحديثة تقود إلى الغائية . إنه يقول " إن الازدهار الدائب للعلوم الطبيعية الحديثة يسفر عن تاريخ غائي وتحولات اجتماعية متجانسة الطابع في مختلف الأمم والحضارات " .[١] ويقول أيضاً في موضع آخر " لقد زودتنا العلوم الطبيعية الحديثة بآلية أضفى ازدهارها المطرد على تاريخ الإنسانية عبر القرون الماضية غائية وتماسكاً منطقياً . وقد باتت هذه الآلية عالمية في عصرنا هذا الذي لم يعد بمقدورنا فيه أن نعتبر تجارب الإنسانية في مجموعها هى تجارب أوربا وأمريكا الشمالية " .[٢] فالتاريخ الكلي للعالم على هذا النحو هو تاريخ غائي . والعلوم الطبيعية الحديثة هى الآلية التي نستطيع بها ومن خلالها أن نفسر إتجاه التاريخ . أما النظرية الدورية فهى لا تستطيع إلا أن تطلعنا على عملية متكررة لا تتوقف عند غاية محددة .

من هنا نلاحظ أن فوكوياما يرفض المناهج التأملية وينحاز إلى المناهج الاستقرائية . أى أنه يهتم بالميتافيزيقا العلمية التي هى جزء من الفلسفة الطبيعية . وثمة نقطة نريد ذكرها بمناسبة الكلام عن الميتافيزيقا العلمية والفلسفة الطبيعية وإن كانت غير ضرورية في هذا البحث وهي النزعة الطبيعية الأبستمولوجية ، إنها تتمثل في صفتين مميزتين وهما : النزعة التعديلية Revisionism والنزعة التقليلية Reductionism . فالتعديليون يأملون في إعادة صياغة الابستمولوجيا باعتبارها اتجاه سيكولوجي تجريبي غير معياري . ومن وجهة نظرهم ، أن تصورنا النظري المسبق للبرهان سيتلاشى إلى حد ما في صياغة الابستمولوجيا . والتقليليون على العكس ،يأملون في تقليل ذلك التصور في شيء ما موقر . ومن وجهة نظرهم ، يعد البرهان جائزاً من خلال تطابقه مع الظاهرة الطبيعية . [٣] وبعد هذا العرض التفصيلي للآلية الدائمة ننتقل الآن للبحث في مسألة الثيموس أو المنزلة .

---

(١) نفسر المرجع السابق ، ص ٩٢ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

3- Scottsturgeon – Matters of Mind Consciousness, Reason and nature – London and New York – 2000 P : 72 .

التاريخ والثيموس

إن الثيموس أو السعى من أجل المنزلة هى المحور الأساسي الذي يتحرك حوله التاريخ . فالصراع من أجل نيل الاعتراف والتقدير عند فوكوياما مفهوم قديم قدم الفلسفة السياسية ، إنه أساس الحركات المعاصرة من أجل الحقوق الليبرالية ، سواء في الاتحاد السوفيتي أو في أوربا الشرقية أو جنوب أفريقيا أو آسيا أو أمريكا اللاتينية أو حتى الولايات المتحدة ذاتها [١] . وتتسم الثيموس بالحرية . فكل ما يحدث في تاريخ العالم من صراعات وثورات وحروب لا يمكن تفسيرها إلا في إطار هذه القوة الروحية . لقد استعار فوكوياما هذه الفكرة من هيجل ليصل من خلالها إلى الثورة الأمريكية .

إن هيجل كما أعلن فوكوياما قد أوضح أن رغبة الإنسان في نيل التقدير والاعتراف به بوصفه كائناً بشرياً ذا كرامة ، قد ألقت به في معركة دموية مصيرية منذ أقدم عصور التاريخ من أجل المنزلة . وكانت النتيجة أن انقسم المجتمع الإنساني إلى طبقة من السادة على استعداد للمجازفة بحياتهم . وطبقة من العبيد استسلموا لمشاعر الخوف الطبيعي من الموت . وبالنظر إلى التناقض القائم بين السادة والعبيد فإن هيجل قد اعتبر أنه قد تم التغلب عليه نتيجة للثورة الفرنسية ، وعند فوكوياما تم التغلب عليه نتيجة للثورة الأمريكية .[٢] فالثورة الفرنسية وكذلك الثورة الأمريكية عند فوكوياما قد حققتا هدف التاريخ وغايته ، وعملتا في نفس الوقت على الاحتفاظ بهذا الجانب الثيموسى لدى السادة والعبيد على السواء .

وتتمثل نقطة البداية في الجدلية الهيجلية كما يذكر فوكوياما في المعركة الدموية بين البشر الأول . إن المسار التاريخي قد بدأ بمعركة من أجل المنزلة الخالصة ، سعى فيها السيد الأرستوقراطى إلى نيل الاعتراف باستعداده للمخاطرة بحياته . وقد أظهر السيد بتغلبه على طبيعته أنه كائن إنساني أرقى وأكثر حرية . غير أن العبد وعمله ، لا السيد وقتاله ، هما اللذان دفعا بالمسار التاريخي قدماً إلى الأمام .

---

(١) فرنسيس فوكوياما ــ نهاية التاريخ وخاتم البشر ــ ترجمة حسين أحمد أمين ص ١٣٧ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٣ .

فالعبد لم يفقد ثيموسيته ، وكان التعبير عن هذه الثيموسية في صورة اعتزازه بعمله وقدرته على استخدام مواد الطبيعة الخسيسة وتحويلها إلى أشياء تحمل طابعه ، وكذا فكرته عن الحرية . فقد دفعه الثيموس إلى تخيل الاحتمال النظري لكائن حر وتأكيد قدره وكرامته قبل أن يعترف الآخرون بهذا القدر وهذه الكرامة . وكانت الرغبة المستمرة لدى العبد في نيل الاعتراف هى المحرك الذي دفع التاريخ إلى الأمام ، لارضا السيد الخامل عن نفسه وفكرته الجامدة عنها .[1] إذن الثيموس وهى المحرك الأساسي للتاريخ لا تقتصر على طبقة السادة أنفسهم فحسب ، وإنما هى موجودة أيضاً لدى طبقة العبيد . إن التناقض القائم بين السيد والعبد بخصوص الثيموس عند هيجل لم يزل نهائياً على مدار التاريخ البشري إلا بحلول الثورة الفرنسية . وكذلك الأمر بالنسبة لفرنسيس فوكوياما فإن هذا التناقض لا يتلاشى بصورة كاملة إلا عندما قامت الثورة الأمريكية . هنا يكون الجدل قد تم واكتمل ، ويكون التاريخ قد انتهى .

وفي مقارنه عقدها فوكوياما بين هوبز ولوك وبين هيجل أعلن فيها أن هوبز ولوك قد حاولا استئصال الثيموس كلية من الحياة السياسية ، وإحلال مزيج من الرغبة والعقل مكانها . ففي المجتمع المدني الذي تخيله هوبز ولوك وغيرهما من أوائل المفكرين الليبراليين الحديثين ، لا يحتاج الإنسان إلا إلى الرغبة والعقل .[2] فالمجتمع المدنى عند هوبز ولوك لا يتضمن الثيموس . والرغبة والعقل هما غايته النهائية . وثمة وجهة نظر تؤيد موقف فوكوياما وهى أن النظريات الليبرالية المبكرة . تنتشر فيها بوضوح الفكرة القائلة بأن المدنية تحددها الغلظة أو الوحشية . فهوبز ولوك استشهدا بـ " المجتمع المدني" بوصفه الحكومة التي انبعثت من حالة الطبيعة الأكثر بدائية . وفكرة روسو عن " الفضيلة المدنية " تتضمن انقلاب ذلك المجتمع المدني من أجل جماعة سياسية أكثر طموحاً . وهيجل ، الجمعي الآخر ، يعيد المجتمع المدني بوصفه المملكة الاجتماعية إلى وضع متوسط بين العائلة والدولة ، وغالباً ما يتأسس عن طريق فاعلية السوق بل وأيضاً عن طريق تنوع الوحدات الإرادية لمختلف الأنواع ، والمغروسة في الوعى الأخلاقي الأكثر تجسداً من تلك العائلة . فهيجل ، بالطبع ، ميز بين الحياة الأخلاقية للمجتمع المدني

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٤٢ ، ١٧٨ ــ ١٧٩ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٦٨ .

والأخلاقية السامية للدولة . ولكنه لاحظ أيضاً أهمية الحياة الأخلاقية للمجتمع المدني في تعزيز الأخلاقية السامية للدولة ؛ وهكذا تستهل الفضيلة المدنية إذا لم تتحقق في المجتمع المدنى .[١] وخلاصة هذا أن الدولة عند هيجل لا المجتمع المدنى هى نهاية التاريخ . والمجتمع المدني هو المرحلة السابقة على الدولة وهو الذي توقف عنده هويز ولوك ، وفيه لا يوجد سوى الرغبة والعقل ، بينما الدولة عند هيجل وكذلك فوكوياما تتحقق فيها المساواة الحقيقية بين السادة والعبيد بجعل عبيد الماضي سادة أنفسهم .

الأساس الثيموسى للحرب والإمبريالية

إن إدراك أهمية الرغبة في الاعتراف والتقدير باعتبارها محركاً للتاريخ كما أوضح فوكوياما ، يتيح إعادة تفسير الكثير من الظواهر التي تبدو مألوفة لدينا ، كالثقافة ، والدين ، والعمل ، والقومية ، والحرب . ويعلن أن العاطفة الثيموسية والرغبة في الاعتراف قد كانتا عند السيد الارستوقراطي هما ما دفعا بالمسار التاريخي إلى الأمام . وإن العواطف الثيموسية المتمثلة في التعصب الديني والوطنية عنده هى القوة التي دفعت بالمسار التاريخي في حروب وصراعات عبر القرون . ويقرر فوكوياما هنا أن الصراع حول القيم يمكن أن يكون أشد قسوة من الصراع حول الثروة والممتلكات المادية لأنه يرتد إلى الثيموس . وعلى هذا يقرر أيضاً أن الأساس النهائي للحرب بين الدول هو الثيموس لا الحفاظ على الذات . وكما أن تاريخ الإنسانية بدأ بمعركة دموية من أجل المنزلة ، فإن الصراع الدولي يبدأ بصراع بين الدول من أجل نيل الاعتراف ، وهو المصدر الرئيسي للإمبريالية .[٢] فالعاطفة الثيموسية والرغبة في الاعتراف تعملان عملهما داخل حدود التاريخ ، وإليها ترجع جميع الحروب ومختلف صور الامبريالية ، وما ينطبق على المستوى الشخصي بين السادة والعبيد منذ فجر التاريخ حول المنزلة ينطبق أيضاً على مستوى الدول .

---

(1) D'entreves Maurizio Passerin and Vogel Ursula - Public and Private - Legal, Political and Philosophical Perspectives - London and New York - 2000 P:108 .

(٢) فرنسيس فوكوياما ــ نهاية التاريخ وخاتم البشر ترجمة حسين أحمد أمين / ص ١٤ ، ١٩١ ، ٢٢٥ .

وتنشأ الإمبريالية مباشرة في نظر فوكوياما عن رغبة السيد الارستوقراطي في نيل الاعتراف بتفوقه [الميجالوثيميا] . وحتماً سيؤدي نفس الدافع الثيموسى الذي دفع السيد على إخضاع العبد له ، إلى حثه على السعى لنيل اعتراف الجميع عن طريق الزج بمجتمعه في معركة دموية مع مجتمعات أخرى . فهذه العملية كما يقرر فوكوياما ليس لها من نهاية منطقية إلا أن يكوّن السيد إمبراطورية عالمية . أو أن يموت .[1] من هنا نجد أن التاريخ كما صوره فوكوياما يسير وفق منطق محدد . وأن قوى النفس الثلاث وبالذات الثيموس تتحكم في مساره . والديموقراطية الليبرالية هى التعبير النهائي الثيموسى .

ويستند فوكوياما في عرضه لتاريخ الثيموس إلى أفكار عنصرية نذكر منها تأكيده بأن الديموقراطية الليبرالية أفضل من كل ما عداها وبالذات من منافستيها الفاشية والاشتراكية . وتأكيده أيضاً على الرأسمالية الليبرالية . والأعجب من هذا وذاك أنه قسم العالم إلى قسمين : أولهما العالم التاريخي ، وثانيهما عالم ما بعد التاريخ . إنه يرى أن العالم سينقسم في المستقبل المرئي إلى شطر قد تخطى التاريخ ، وشطر لا يزال غارقاً في التاريخ . وفي عالم ما بعد التاريخ سيكون الاقتصاد هو المحور الرئيسي للتفاعل بين الدول ، في حين تتضاءل أهمية القواعد العتيقة لسياسة القوة .وسيظل عالم ما بعد التاريخ مقسماً إلى دول قومية ، غير أن قومياته المستقلة ستكون قد تصالحت مع الليبرالية . أما العالم التاريخي ، فسيبقي فريسة لمختلف الصراعات الدينية والقومية والأيديولوجية ، وستظل القواعد العتيقة لسياسة القوة قائمة فيه . إن عالم ما بعد التاريخ كما يرى فوكوياما ، هو عالم قد تفوقت فيه الرغبة في الحياة المريحة والحفاظ على النفس على الرغبة في المخاطرة بالحياة في المعارك من أجل المنزلة الخالصة . هو عالم حل فيه الاعتراف العام والعقلاني ، محل الصراع من أجل السيطرة .[2] كل هذه الآراء تعبر عن نزعة فوكوياما العنصرية فإنه ينحاز بطريقة أو بأخرى إلى العالم الصناعي الذي يطلق عليه عالم ما بعد التاريخ ، بينما العالم غير الصناعي فهو عالم في نظره لا يعرف سوى استخدام القوة ضد جيرانه ولا يقوم على أساس الديموقراطية الليبرالية في المجال السياسي ولا يعتمد في اقتصاده على الرأسمالية الليبرالية .

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .
(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٨ .

نتائـــج البحـــث

أولا : توضح النظريـــة الحيويـــة عند توينبي أنه لا غائية في التـــاريخ ، وكـــل مـــا يحدث فيه ليس إلا تكرارا ، فإحـــدى وعشرين حضارة قام توينبي ببحثها هـــى عبارة عن نماذج متكررة بصـــور مختلفـــة . ومن ثم تختلف نظـــرة توينبـــي عن نظرة هيجل للتاريخ . فالتكرار المستمر عنـــد هيجـــل هو خاصية طبيعيـــة ، ويسير فرنسيس فوكوياما على هـــذا النهج نفســـه ، والتاريخ عنـــده كمـــا هو عند هيجل ينتهي إلى غاية ، هى عند هيجـــل شـــيخوخة التـــاريخ وعنـــد فرنسيس فوكوياما نهاية التاريخ .

ثانيا: لقد اعتبر توينبي أن الحريـــة في أجلى معانيها لـــم تتحقـــق إلا فـــي العـــالم اليوناني والروماني ، وأن الديموقراطية والعلم في نظره وهما من أهم ســـمات الحضارة الغربية حادثتـــان لا معنى لهما . وشأنه في ذلك شأن ســـلفه هيجـــل الذي رأى أن الحرية الكاملة لم تتحقق إلا في العالم الجرمـــاني . ورأى أيضـــا فوكوياما أن الحريـــة الكاملة لم تتحقق إلا فـــي الثـــورة الأمريكيـــة . إن الحرية عند هؤلاء المفكرين لم تبحث بحثا موضوعيا دقيقـــا . فقـــد خضعـــت لأهوائهم . كما أن هذه النظرة في نفس الوقت تعبر عـــن نزعـــة عنصريـــة لا مبرر لها .

ثالثـــا: وجود اختلاف أساسي بين النظرية الحيوية أو الدورية عنـــد أرنولـــد توينبـــي وبين الغائية عند فوكوياما . فتوينبي يسعى إلى إقامة التـــاريخ علمـــا علـــى غرار العلوم الطبيعية . ومن ثم فنظريته فـــي التـــاريخ تقـــوم علـــى أســـاس المجتمعات البشرية ، فإحدى وعشرون حضارة قام بتحقيقـــها تحـــت ظـــروف مماثلة وفي ظل شروط معينة كشفت له عن قانون عام يتحكـــم فـــي تكوينـــها وزوالها . فالتاريخ الكلي للعالم كما يتصوره توينبي يخضع لقوانين عامة يمكن عن طريقها التنبؤ بالمستقبل . أما فوكوياما فإن الغائيـــة عنـــده تقـــر بـــأن للتاريخ نهاية لا يتجاوزها . والمنطق الوحيد الذي يحكم التاريخ في نظره هـــو المنطق الجدلي ، وهو في هذا يسير على نفس المنهج الذي اخترعه هيجـــل . فالتناقض المتأصل في العلاقـــة بيـــن السادة والعبيد منذ فجـــر التـــاريخ تـــم القضاء عليه نهائيا في نظر فوكوياما في ظل الثورة الأمريكية .

رابعـــا: إن نظرية التحدي والاستجابة وهى جوهر دراسة التاريخ عند توينبي ليست إلا انعكاسا لموقفه الديني . فنظرية التحدي التي تولد الحضـــارة علـــى أساســـها تتصل اتصالا تاما بمسيحيته . فالعقبات والموانـــع وكافـــة المعوقـــات التـــي وضعها الله في العالم هى عبارة عن تحديات دائمة تواجـــه الجنـــس البشـــري وبتغلبهم وانتصارهم عليها يتحقق التقدم والرقى في شتى مجالات الحياة . إنـــه

انطلق في دراسته للتاريخ من مقدمات لاهويته، الأمر الذي أثار النقد ضد نظريته في التاريخ .
إن هدف توينبي من دراسة التاريخ هو نمو الدين . ولم يعد الدين عنده نقطة التقاء بين حضارة سابقة وأخرى لاحقة تابعة لها .

خامساً : أما فوكوياما فإن نظريته في التاريخ هى التطبيق الفعلي لفلسفة هيجل . فهيجل هو بمثابة الضوء الذي استضاء به فوكوياما . إنه انحاز إلى الجدل الهيجلى ، فهو في نظره المنطق الحقيقي الذي يسير بمقتضاه التاريخ . إن فوكوياما بدأ من الطرف المضاد للماركسية واستخلص من نظرية هيجل نتائجها . فبدلاً من الاقتصاد الشيوعي كما هو الحال عند الماركسية فإن الجدل سيؤدي إلى الرأسمالية الحرة أو اقتصاديات السوق ، وتبعاً لنظرية هيجل فإن التاريخ سيتجه صوب الديموقراطية الليبرالية . فنظريات التعاقب الدوري للحضارات في نظر فوكوياما لا يمكنها أن تقدم تفسيراً صحيحاً للتاريخ .والمنطق الجدلي هو المنطق الوحيد الذي يحكم حركة التاريخ بأسره .

سادساً : ويتمثل انتقاد فوكوياما للنظرية الدورية منذ الفكر في العصر القديم في أن الإغريق لم يكن لديهم أى تصور عن التاريخ الغائي ، وكل ما عرفوه فقط هو أن التاريخ يدور في دورات لا نهاية لها . فالتاريخ الكلي للعالم كما يتصوره فوكوياما لا يخضع لقوانين عامة . إذ التاريخ عنده يتحرك نحو غاية محددة ، إنها الحرية . ومن ثم يشيد فوكوياما بالنظريات التي تؤكد على الحرية . ويرفض النظريات التي تفسر التاريخ تفسيراً حتمياً ، إنه انحاز إلى المسيحية وكانط وهيجل والكسندر كوجيف في القرن العشرين . بينما التصور اليوناني للتاريخ عنده وكذلك النظريات التي سارت على شاكلته في القرنين التاسع عشر والعشرين قد فشلت في كتابة تاريخ عالمي . فالتاريخ الكلي للعالم عند فوكوياما يتجه نحو الحرية بوصفها غايته النهائية .

سابعاً : إن قوى الروح الثلاث التي وردت في جمهورية أفلاطون وهى الشهوة ، والعقل ، والثيموس كانت نقطة الانطلاق عند فوكوياما في تفسير غائية التاريخ . والدولة العامة المتجانسة هى نتاج هذه القوى .
وعلى أساس قوى الروح هذه وضع فوكوياما نظرية في التاريخ تؤكد على الغائية . فالاقتصاد الحر والاعتراف يرتدان إلى قوى النفس ، فالاقتصاد ينمو بفضل التقدم في العلوم الطبيعية ، وهذا الأخير إنما يتحقق نتيجة للرغبة والعقل. والحاجة إلى الاعتراف والتقدير إنما ترجع إلى الثيموس .

ثامناً : إن الهدف العملي لا النظري للعلوم الطبيعية في مجموعها هو الذي استفاد

منه فوكوياما ، وهذا أمر طبيعي عنده فهو أمريكي غارق في الواقع العملي المتمثل في الاقتصاد . والعلوم الطبيعية الحديثة هى الآلية التي نستطيع بها ومن خلالها أن نفسر اتجاه التاريخ . أما النظرية الدورية في نظر فوكوياما فإنها لا تستطيع أن تطلعنا إلا على عمليات متكررة لا تتوقف عند غاية محددة .

تاسعاً: لقد انحاز فرنسيس فوكوياما إلى العالم الصناعي الذي أطلق عليه عالم ما بعد التاريخ ، بينما العالم غير الصناعي فهو عالم في نظره لا يعرف سوى القوة ضد جيرانه ولا يقوم على أساس الديموقراطية الليبرالية في المجال السياسي ولا يعتمد في اقتصاده على الرأسمالية الليبرالية .

قائمة المراجـــع الإنجليزية

1- Toynbee Arnold J . A Study of History – 7 A universal States – Oxford University press London – New York – Toronto – 1963 .

2- Toynbee Arnold J . A Study of History – By Somervell D.C. Oxford University press – 1962 .

أرنولد توينبي ــ مختصر دراسة التاريخ ــ ترجمة فؤاد محمد شـــبل ــ الجـــزء الأول ــ جامعة الدول العربية .

3- Barnes Harry Elmer A History of Historical Writing – New York – 1963.

4- Berlin Isaiah, four essye Liberty, Oxford University Press , London, 1969 .

5- D' Entreves Maurizio Passerin and Vogel Ursual – Public and Private – Legal, Political and Philosophical Perspectives – London and New York – 2000 .

6- Hegel – The Philosophy of History – Translated by J. Sibree – New York – 1956 .

7- http : // WWW. Sais – Jhu – edu / Faculty / Fukuyama – by Roger Kimball .

8- Lowith Karl – Meaning in History – Chicago, Press – 1949 .

9- Porter Burton F . The Good Life – Macmillan – London 1980 .

بيرتون بورتر ــ الحياة الكريمة ــ الجزء الأول ــ ترجمة دكتور / أحمد حمـــدي محمود ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٣ .

10- Priest Stephen – Jean Paul Sarter – Basic Writing – London and New York 2000 .

11- Scottsurgeon – Matters of Mind Consciousness , Reason and Nature – London and New York – 2000 .

12- Sorokin Pitirim A . Modern Historical and Social Philosophies – New York – 1963 .

13- Stephen Gaukroger, John Schuster and John Sutton – Descartes , Natural Philosophy – London and New York – 2000 .

قائمة المراجع العربية

١ــ أرنولد توينبي ــ الحضارة في الميزان ــ ترجمة أمين محمود الشويف ــ الإدارة العامة للثقافة.

٢ــ فرنسيس فوكوياما ــ نهاية التاريخ وخاتم البشر ــ ترجمة حسين أحمد أمين ــ مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٩٣ .

٣ــ دكتور أحمد محمود صبحي ــ في فلسفة التاريخ ــ مؤسسة الثقافة الجامعية .

٤ــ روبرت لافون ــ جرامون ــ قضايا الساعة ــ ترجمة نادية القباني .

٥ــ دكتور محمود رجب ــ الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين ــ الطبعة الثانية ــ دار المعارف ١٩٨٦ .

٦ــ دكتور محمود زيدان ــ مناهج البحث في العلوم الطبيعية المعاصرة ــ دار المعرفة الجامعية ١٩٩٠ .